التحول السياسي في صدر الإسلام والتأسيس لفرضية الصراع قراءة في الأيديولوجيا الشيعية

أ. د . محمد أمزيان- جامعة قطر

ثمة دراسات معاصرة متعددة تجنح إلى تفسير التحول السياسي الذي شهده المجتمع الإسلامي الأول في إطار الصراع على السلطة. وهذه الفرضية تبنتها العديد من الدراسات المعاصرة التي صدرت عن خلفيات إيديولوجية متباينة، دينية وحداثية، يجمع بينها توحدها حول أطروحة الصراع. وبغض النظر عن الأطراف المتهمة في هذا السياق، وسواء أكان المنطلق فرديا يعبر عن تطلعات القادة السياسيين نحو الزعامة والسلطة، أم كان ناتجا عن تكتلات سياسية، حزبية دينية وعصبية، فالنتيجة المعتمدة وفقا لفرضية الصراع تبقى واحدة: أول خلاف حدث في الأمة كان خلافا في السياسية ومن أجل السياسية، خلاف حول الحكم، وصراع من أجل السلطة. والسؤال هنا: هل كان الأمر كذلك في وعي الأمة، وفي ذاكرة التاريخ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون تعبيرا عن وجهة نظر فئوية منحازة إيديولوجيا ومذهبيا؟

والواقع أن مسألة التحول السياسي في صدر الإسلام، وما نتج عنه من مضاعفات مست شرعية الحكم في التجربة التاريخية الإسلامية، تعتبر واحدة من الإشكاليات التي لم تحظ بعد بدراسة علمية محايدة وموضوعية، بالنظر إلى حجم التوظيف الإيديولوجي الذي خضعت له هذه المسألة بغرض إضفاء الشرعية على الخيارات السياسية المتصارعة على أرض الواقع الراهن.

وتعتبر الأيديولوجيا الشيعية واحدة من أكثر القراءات تبنيا لهذا التفسير، خاصة في ظل الاستقطاب الطائفي الحاد الذي تجاوز على أرض الواقع حد السجال الديني إلى العمل المسلح وانتهاك سيادة الدول. وهذا التفسير يرتكز بالأساس على فرضية المؤامرة، وهي فرضية تعود بهذه المؤامرة إلى لحظة التأسيس، حيث نسجت مؤامرات الأصحاب على إرث النبوة. وتذهب هذه

الفرضية بالتفسير التآمري إلى أقصى مداه، إذ لا يتعلق الأمر بحسب هذا المنطق بالتفسير الشائع الذي يربط التحول بأحداث الفتنة وما تمخضت عنه من تحولات سياسية، بل يتجاوز ذلك كله ليستوعب مجموع الأحداث والوقائع السياسية التي عاشها صدر الإسلام، والتي تزامنت مع وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة. وأيا كان المدى الذي تقف عنده هذه القراءة السلبية التي تأسست على مبدأ الإدانة، فإن ثمة ثابتا واحدا يحكمها، وهو أن الحراك السياسي الذي قاده المعادون للشرعية من وجهة النظر الشيعية، كان يتأسس على منطق الحسابات السياسية، والمصالح الفئوي الضيقة الممزوجة بالعداء للدين الناشئ، ومن ثم العمل على إجهاض مشروعه السياسي الذي يتم اختزاله دوما في نظرية الإمامة.

وفيما يتعلق بمنهجية التفسير والتحليل، فقد تبنت الأيديولوجيا الشيعية تفسيرا دينيا محضا، يقوم على أساس ثنائية الكفر والإيمان. وعلى أساس هذا التفسير، ستعمل الفرضية الشيعية على تصنيف أطراف الصراع بين مؤمنين مناصرين للشرعية، وجاحدين للدين والشرعية على حد سواء. ومن هذا المنظور الحدي سيتم قراءة مجموع الأحداث السياسية، وهو ما يبرر ضرورة استحضار هذه المقاربة المنهجية في استكشاف البعد الأيديولوجي للنموذج التفسيري الذي تبنته النظرية الشيعية.

المبحث الأول : الأساس العقدي لفرضية الصراع

1. مركزية الإمامة في بناء النموذج التفسيري الشيعي

تتأسس الرؤية الشيعية للتاريخ السياسي الإسلامي عموما، وأزمة الشرعية تحديدا، على خلفية الاعتقاد باغتصاب الحق المزعوم للإمام المعصوم، كما هو مقرر في نظرية الإمامة. وهذه الخلفية العقدية تتجاوز في تفسيرها للأحداث التاريخية بعدها السياسي إلى بعدها الديني، لتنزل هذا التفسير منزلة العقائد الإيمانية التي لا تقبل أي شكل من أشكال المساومة أو الجدال. فاستنادا إلى هذا المنظور العقدي، لم تعد المسألة مجرد وجهة نظر تقبل النقد والمراجعة أو

التصحيح، بل حقيقة مطلقة تستمد قطعيتها بل وقدسيتها أيضا من قداسة العقائد الإيمانية و يقينيتها المطلقة. لذلك، يمكن القول بكل تأكيد بأن الفكر الشيعي أسس نموذجه التفسيري على أساس اعتقادي راسخ، وهو ما يفسر معارضته المبدئية لكل التفسيرات المخالفة التي اعتبرها مجرد تبريرات ليس لها أي أساس ديني أو أخلاقي أو علمي. ومع هذه الخلفية العقدية، يتحول الجدل من جدل حول السياسة إلى جدل في الدين، ومن جدل عن التاريخ إلى جدل في العقائد، فالمسألة في جوهرها – حسب هذا المنظور– لا تتعلق بأخطاء سياسية بقدر ما هي مؤامرة انقلابية أطاحت بميراث النبوة، واغتصبت حقا شرعيا نزل به الوحي، وصدح به النبي، فآمن به من آمن، وكفر به من كفر.

ومن الناحية المنهجية، أعتقد أنه من الضروري إعطاء هذا العنصر حقه من الإيضاح والبيان كشرط أولي لفهم مجموع التفسيرات والقراءات التي راكمها الفكر الشيعي حول هذه المسألة عبر الزمن. فكما هو مقرر في المذهب الشيعي، تندرج الإمامة ضمن الأصول الاعتقادية، وهي مسألة يتم التشديد عليها بقوة، فقد أنزلها الشيخ المفيد منزلة الفرائض الإيمانية، فقال إنها "فرض لازم كأوكد فرائض الإسلام"[1]، وبالقدر ذاته من التشديد أكد العلامة الحلي أن "الإمام ركن من أركان الدين لأن قوله مبدأ من المبادئ، وهو الحافظ للشرع والعامل به"[2]. ويفهم من قول العلامة الكافي أن الاعتقاد في الإمامة ليس من أصول المذهب فحسب، بل إنها من أصول الإيمان التي لا يصح إيمان المسلم بدونها، ونص كلامه: "الأئمة قوام الله على خلقه، وعرفاؤه على عباده، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه"[3].

هذا الموقف العقدي يستند إلى مبدأ "اللطف الإلهي" الذي يقتضي إرسال الرسل والأنبياء، والعهد إلى الأوصياء، لحفظ الوجود الإنساني من التردي في مهالك الضلال، وضمان التجلي الإلهي في التاريخ الإنساني[4]. وهذا المبدأ له قيمة علمية بالغة الأهمية في بيان مركزية الإمامة في الاعتقاد الشيعي، إذ يؤكد حاجة الناس إليها أكثر من حاجتهم إلى النبوة لانقطاع النبوة

واستمرارية الإمامة[5]. واستنادا إلى هذا الاعتقاد الراسخ، نشأ هذا التطابق الذي يقيمه الإمامية بين النبوة والإمامة، فهما صنوان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وقد قرن بينهما الشيخ الصدوق في بيانه لعقائد الشيعة في "باب الاعتقاد في عدد الأنبياء والأوصياء عليهم السلام"، وكان من جملة ما ورد في هذا الباب مما يجب اعتقاده في الأئمة قوله: "ونعتقد فيهم أنهم جاءوا بالحق من عند الحق، وأن قولهم قول الله تعالى، وأمرهم أمر الله تعالى، وطاعتهم طاعة الله تعالى، ومعصيتهم معصية الله تعالى، وأنهم – عليهم السلام – لم ينطقوا إلا عن الله تعالى وعن وحيه...، ويجب أن نعتقد أن الله تعالى لم يخلق خلقا أفضل من محمد والأئمة، وأنهم أحب الخلق إلى الله...، وأن الله تعالى خلق جميع ما خلق له ولأهل بيته–عليهم السلام– وأنه لولاهم لما خلق الله السماء والأرض، ولا الجنة ولا النار، ولا آدم ولا حواء، ولا الملائكة ولا شيئا مما خلق، صلوات الله عليهم أجمعين...، وأنهم أولوا الأمر الذين أمر الله تعالى بطاعتهم...، وأركان توحيده، وأنهم معصومون من الخطأ والزلل...، وأن لهم المعجزات والدلائل...، وأن وليهم ولي الله تعالى، وعدوهم عدو الله تعالى[6].

واستنادا إلى هذه المأثورات التي رسختها التقاليد الشيعية عبر قرون من الجدل الديني، شكلت نظرية الإمامة نموذجا تفسيريا صارما يتجاوز في صرامته المنهجية كل الأنساق المعرفية المغلقة التي أنتجتها الإيديولوجيات الفلسفية التقليدية بحكم طابعها الديني الذي رفعها إلى مستوى الاعتقاد. وهذه الصرامة المشفوعة بالقداسة تعتبر في الواقع المسئول الأول عن تلك النظرة المتطرفة التي تجنح إلى تفسير الوقائع التاريخية التي شهدها صدر الإسلام تفسيرا عقديا يتحدد من خلال ثنائية الكفر والإيمان، والجاهلية والإسلام. لقد تم تقويم الإمامة باعتبارها منصبا إلهيا كالنبوة تماما، وهذا التقويم يجعل من استخدام اللغة الدينية في مجال التدافعات السياسية أمرا مبررا تماما حيث يفسر كل اجتهاد بشري على أنه اعتراض على النص وموجها ضد اختيار الله. ولقد تحكم هذا التفسير في العقل السياسي الشيعي على مدى قرون من الزمن، وهو على ما فيه من تطرف في تكفير المخالف وإخراجه من دائرة الإيمان، لا يزال يجد له قبولا وانتشارا واسعين في أوساط المراجع الشيعية المعاصرين[7].

ولأن الأمر في نهاية المطاف يتعلق بـ"منصب إلهي كالنبوة" تتحدد فيه هوية الإمام من خلال وظيفته كـ"مبلغ لما أخذه وتعلمه من النبي"، فالنتيجة المنطقية لهذا الاعتقاد أن تحديد أهل الاستحقاق أمر تكفل الله ببيانه في محكم تنزيله، ولم يتركه لأهواء البشر ونزواتهم. ف "من المعلوم أنّ ديناً كدين الإسلام الذي تقرّرت فيه جميع الأحكام والشرعيّات حتّى السنن والمرغّبات ، وكلّ جانب من جوانب الحياة لا يمكن أن يكون أهمل مسألة تعيين الإمام والخليفة بعد الرسول على أهمّيتها، أو يكون أوكلَها إلى اختيار الأمّة بما فيها الحثالة الجاهلة، كأبي عبيدة الجرّاح الذي لا يميّز الهرّ من البرّ ، ولا يعرف خير نفسه فكيف بخير الآخرين[8]. بهذه النبرة الصارمة والحاسمة، والتي لا تخلو من الابتذال في الشتيمة، يتم محاكمة التاريخ السياسي للإسلام، تاريخ يتمثل في المخيال السياسي الشيعي في شكل ثنائيات متضادة، حيث تتجابه القوى، وتتصارع الإرادات، تاريخ مفترض ومتخيل، كان للقصص وخيال الرواة الدور الأكبر في نسج فصوله بما يتوافق ومقتضى النسق العقدي المقرر سلفا.

1.1. الهويات المتصارعة: عودة إلى المانوية

عندما تتماها السياسة مع العقيدة، ويتلبس الفعل السياسي بقداسة الاعتقاد، فمن المنطقي أن يتم استصحاب المعيار العقدي في محاكمة الأطراف السياسية المتفاعلة على أرض الواقع، وتحديد هوياتهم والحكم على نواياهم وأهدافهم. إن هذا الاستصحاب يفسر لنا ذلك الاستخدام المفرط للغة التجريم الديني في الجدل السياسي الممتد عبر الزمن. واستنادا إلى هذا المنظور، فإن تقويم التجربة السياسية لصدر الإسلام سيتجاوز حدود الاجتهاد والاختلاف في الرأي إلى محاكمة النوايا والضمائر، وهو ما أفرز سلسلة من المتناقضات التي لا تقبل أبدا بأي شكل من أشكال التعايش السلمي فيما بينها. ومن منظور صراعي ديني كهذا، تتحدد أطراف الصراع على قاعدة التقاليد الدينية المانوية القديمة حيث الصراع بين الخير والشر، وبين النور والظلام، وبلغة دينية أكثر كثافة، بين الكفر والإيمان والجاهلية والإسلام. وعلى أساس هذا الاعتقاد المانوي، تتمايز الصفوف لتتكشف عن محورين يقفان على طرفي نقيض، محور الخير،

ونواته الصلبة الأئمة الأطهار، ويتسع لكل المؤمنين الصادقين ممن دان بالإمامة، ومحور الشر، ونواته الصلبة المكذبون والمنافقون، والمرتدون على أعقابهم لحظة وفاة النبي، أولئك الذين نقضوا العهد، وخانوا الوصية، ويتسع لكل من دان لهم بالولاء ممن اعتاد الفكر الشيعي وصفهم بالعوام.

ومع أن مجال التداول هنا سياسي بامتياز، والأصل فيه تعدد الرؤى و تكافؤ التقديرات، تضيق دائرة التسامح مع المخالف حيث يتكشف هذا التصنيف المانوي عن سلسلة من الثنائيات المتناقضة التي ينتصب فيها المقدس نقيضا للمدنس، والكفر نقيضا للإيمان، وما شاكل هذه الأوصاف التي صيغت ببلاغة محكمة لترسم في الأفق صورة مأساوية لصراع أزلي كتبت فصوله في اللوح المحفوظ، وتبدت مآلاته التاريخية في صفحات الزمن الشيعي منذ لحظته التأسيسية المحايثة لزمن النبوة كما هو مقرر في اعتقادهم. في هذه الصورة، يقدم المشهد السياسي ليس بوصفه نتاج حراك تاريخي، بل تجسيدا لقدر إلهي ما فتئت مآلاته تتبدى مع الزمن، لتتحقق سنة الله الأزلية المتمثلة في الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل. وإظهار هذه السنة الإلهية الأزلية –حسب هذا المنظور الاعتقادي– إنما يتأكد باستقراء آيات التنزيل التي لا يمل العقل الشيعي من استدعائها لما تقدمه من "حقائق" بشأن الأحداث والوقائع التاريخية التي تطابق فيها الوصف مع الموصوف.

2.1.ثنائية المقدس والمدنس

ضمن هذه الثنائية، تقدم القراءة الشيعية جردا مطولا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية حيث تتراس نصوص الوعد والبشارة، والتزكية والتطهير لترسم صورة ملائكية للشجرة الزكية، "شجرة طوبى"[9] المنبثقة من دوحة النبوة. وفي مقابل ذلك، تتراس آيات الوعيد والنذير لترسم صورة شجرة زقوم، الشجرة الملعونة في القرآن[10]، وهي تتسع لتشمل كل أهل القبلة الذين لم يدينوا بعقيدة الإمامة.

أما عن "شجرة طوبى"، فأصولها الأئمة الأطهار، وفروعها المؤمنون الطاهرون الذين دانوا بولائهم للأوصياء المؤتمنين على إرث النبوة. واستنادا إلى قراءة تأويلية مبتسرة للعديد من نصوص القرآن والحديث، يجادل علماء المذهب في أفضلية أئمتهم على سائر الأنبياء، وهي نتيجة لا تقررها النصوص الشرعية فحسب، بل يؤكدها القياس أيضا. فالنبي صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء وأفضلهم قاطبة، وهذا يوجب قياسا أن يكون أوصياؤه من بعده كذلك أفضل من سائر الأنبياء قبله قاطبة. لنستمع إلى هذه الشواهد الدالة: "ولمّا كان نبيّنا أفضل من جميع الأنبياء السابقين بالكتاب وبالسنّة وبالإجماع، فيكون عليّ أيضاً كذلك"[11]. والذي يبرر هذا القياس أن الإمام عليا "اجتمع فيه ما تفرّق في أولئك من الصفات الحميدة، ومن اجتمعت فيه الصفات المتفرّقة في جماعة، يكون أفضل من تلك الجماعة[12]. ليس ذلك فحسب، بل إن هذا القياس يبرره أيضا مساواة علي لخاتم الأنبياء عليه السلام، "فعلي ساوى رسول الله، فهو أيضاً أفضل من الأنبياء[13]. ودفعا لكل توهم أو تردد قد ينتابان الإيمان الشيعي، يأتي هذا التوضيح حول المقصود بهؤلاء الأنبياء: "إن أئمتنا – سلام الله عليهم – أفضل من سائر الأنبياء حتى أولي العزم منهم. أما تقدمهم على غير أولي العزم منهم فقد اتضح مما ظهر لك من أن مرتبة الإمامة فوق مرتبة النبوة والرسالة، وأما تقدمهم على أولي العزم منهم مع ثبوت الإمامة لهم، فمن جهة أن الإمامة والولاية لها مراتب، وأتم مراتبها وأكملها ما ثبت لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم، ولذا كان أفضل الأنبياء عليهم السلام، ومرتبة إمامة الفرع في مرتبة أصله، فإمامة أئمتنا – سلام الله عليهم – أيضا أتم مراتب الإمامة والولاية[14]. وإذا كان الأئمة بهذه الدرجة من القداسة، فمن البديهي أن تثبت لهم العصمة كما هو مقرر في أصول المذهب.

هذا بخصوص الأئمة، أما فيما يتعلق بالأتباع والأشياع، وهم كل من دان بعقيدة الإمامة، فهم أطهار بالولاء، وهو مبدأ ديني صرف وفق لما يعتقده محققو الشيعة الذين يعتبرون هذا الولاء إجابة وامتثالا لدعوة النبي صلى الله عليه وآله: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداهُ"[15]. وهؤلاء الأتباع فازوا برضوان الله، وضمنت لهم الجنة بانتسابهم إلى شجرة "طوبى"

التي ترمز إلى كل من ينتحل التشيع. نقرأ في نص منسوب للإمام محمد الباقر: "أنتم شيعة الله، وأنتم السابقون الأولون والسابقون الآخرون، والسابقون في الدنيا إلى ولايتنا، والسابقون في الآخرة إلى الجنة، وقد ضمنا لكم الجنة بضمان الله وضمان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما على درجات الجنة أحد أكثر أزواجا منكم، فتنافسوا في فضائل الدرجات، أنتم الطيبون ونسائكم الطيبات، كل مؤمن منكم صديق، وكل مؤمنة منكم حوراء عيناء"[16].

وفي مقابل هؤلاء الأطهار الذين استحقوا ببركة الإمامة صكا بالغفران، دأبت الأيديولوجيا الشيعية على تصنيف خصومها السياسيين على قاعدة الولاء الطائفي الذي يجد سنده الشرعي عندهم في قول الله لنبيه: "يا محمّد، هذه الأئمّة بعدك مطهّرون معصومون وأعداؤهم ملعونون"[17]، وقول النبي لعلي: "اللهم وال من والاه، وعاد من عاداهُ"[18]. وعلى أساس هذا الاعتقاد الطائفي حدد أقطاب النظرية الشيعية أسس التعامل مع خصومهم السياسيين وفق ما وضحه الشيخ الصدوق في الباب الذي خص به "الاعتقاد في الظالمين" والذي قال فيه: "اعتقادنا فيهم أنهم ملعونون، والبراءة منهم واجبة"[19].

ووفقا لها التصنيفي الطائفي، يقف طابور طويل ممتد في التاريخ، وهم كل من خالف "الأطهار" من "الأغيار" تماما كما تقرره نظرية شعب الله المختار التي يبدو أن النظرية الشيعية استعارت منها مجموع جهازها المفاهيمي في محاكمة خصومها من شركائها في العقيدة. ضمن هذا السياق العنصري، تنتصب سلسلة لا تكاد تنتهي من النصوص الشرعية التي وردت في سياق الذم والوعيد. بل إن الشواهد التي قدمتها القراءة الشيعية لإدانة خصومها تتعدى النصوص الشرعية إلى الوقائع التاريخية، وهذه الإدانة تجد مبررها الشرعي في عدم التصديق بإمامة علي، وهي جريمة دينية تعادل الكفر والمروق من الدين. ففي كتابه "الاعتقادات"، أفرد الشيخ الصدوق بابا خاصا عن "الاعتقاد في الظالمين" قال فيه: "اعتقادنا فيهم أنهم ملعونون، والبراءة منهم واجبة"[20]. وفي سياق تأكيد هذا الاعتقاد استشهد بسيل من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ. وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي**

هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾. القصص/41-42، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ** ١٣﴾. الممتحنة/آية13، وقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾، هود/113. هذه العينة من الشواهد الاستدلالية تغني عن تتبع الكثير من مثيلاتها التي سودت بها المدونات الشيعية آلافا من الصفحات، وتناقلتها أجيال كبار محققيهم ودعاتهم على مدار السنين وإلى اللحظة الراهنة.

وبموازاة مع هذا المنحى التجريمي العام الذي تتسع دائرته لتعم كل من خالف الطائفة الشيعية، ترد شواهد مكثفة تخص بالذكر أشخاصا بأعيانهم، ممن تعتبرهم القراءة الشيعية أكابر مجرميها، وهم أفراد الصحابة الذين ارتبطت أسماؤهم بأحداث تاريخية بارزة أمثال أبي بكر وعمر، وعائشة وطلحة والزبير، ومعاوية وعثمان وغيرهم. وهؤلاء ومن في حكمهم ممن تم تصنيفهم على رأس القائمة السوداء بحكم ضلوعهم في التآمر على المنصب الإلهي للولي المعصوم، كان نصيبهم من الإدانة أكبر من كل ما أدين به أكابر المجرمين في التاريخ البشري، ورصدت في حقهم من النصوص والروايات والأخبار والقصص ما تكل عنه المدارك والعقول. ولم تقتصر وجوه الإدانة على اعتبارات دينية صرفة تتعلق بموجبات الكفر والإيمان على قاعدة الإيمان الشيعي، بل لاعتبارات سياسية أيضا، وهي الأهم، تتعلق باستحقاقاتهم السياسية المزعومة، ولذلك تكلف القوم تقديم كشف كامل بسيرة هؤلاء بما يقدح في صلاحيتهم وأهليتهم لتلك الاستحقاقات. هكذا تبدأ الرواية الشيعية بالتذكير بنقض أبي بكر وعمر البيعة والعهد الذي أخذه عليهم الله ورسوله، ومخالفتهم لآيات التنزيل التي فرضتها كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿ **وَأَوفوا بِعَهدِ اللَّهِ إِذا عاهَدتُم وَلا تَنقُضُوا الأَيمانَ بَعدَ تَوكيدِها**﴾ النحل/90. ، وقوله: ﴿ **وَالَّذينَ يَنقُضونَ عَهدَ اللَّهِ مِن بَعدِ ميثاقِهِ وَيَقطَعونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يوصَلَ وَيُفسِدونَ فِي الأَرضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعنَةُ وَلَهُم سوءُ الدّارِ**﴾ الرعد/25. والنتيجة اللازمة المترتبة على هذا النقض كما هو معهود، أن نقض العهد من كبائر الذنوب، خصوصا

إذا حدث من الصحابي. ويضاعف هذا الذنب كون هذا النقض يتعلق بحق المجتمع العام بل وحق جميع المجتمعات البشرية[21].

وتذهب الرواية الشيعية إلى أبعد من هذا إذ تشكك ابتداء في إسلام الصحابيين الكبيرين، وتقذفهما بتهمة التآمر والخيانة. وعلى هذا الأساس تعيد قراءة علاقتهما بشخص النبي الذي ما كان له أن يكشف استصحابهما إلا اتقاء لهما وحذرا من كيدهما. فأما أبو بكر، فتقول الرواية الشيعية إن النبي صلى الله عليه وسلم صحبه معه في هجرته، وكان صاحبه في الغار حذرا منه لئلا يظهر أمره لأعدائه[22]، وأما عمر فقد ثبت عندهم أنه شك في صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ما جاهر به أثناء اعتراضه عليه في صلح الحديبية، وتكذيبه بوعد الله نبيه بالفتح القريب[23]. ليس ذلك فحسب، بل إنهما وكل من شاركهما في إثم السقيفة كانوا من المرتدين المنافقين الذين عاشوا النفاق في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكل باطني وسرّي[24]. ويقوي هذه التهمة لديهم، انهزامهما في خيبر وأحد وحنين وما أنزل الله فيه من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِم يَومَئِذ دُبُرَهُ إِلّا مُتَحَرِّفًا لِقتالٍ أَو مُتَحَيِّزًا إِلى فِئَةٍ فَقَد باءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأواهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصيرُ**﴾ الأنفال/16[25].وتثبيتا لهذا الاتهام، تقدم الكتابات الشيعية كشفا مفصلا عن سيرة الصحابيين الكبيرين بما يؤكد فسقهما في الجاهلية والإسلام. وبالرغم من أن الإسلام يجب ما قبله، فقد حرصت هذه القراءة على التذكير بماض الرجلين في الجاهلية على سبيل المقارنة بعلي الذي ترعرع في كنف النبوة، لتأكيد أحقيته وأهليته للحكم دونهما، وهو بيت القصيد في هذا الاتهام. ولا تخلو الإفادات الواردة في هذا السياق من الخطابة بغرض إثارة الوجدان ودغدغة العواطف، وهو ما يبرر تلك التفاصيل المملة حول الممارسات التي كان عليها أهل الجاهلية، والتي يتم استعادتها من خلال سيرة الرجلين[26]. وفي هذا السياق، تروج الرواية الشيعية قصة مفادها أنهما كانا يدمنان على شرب الخمر، وأنهما استمرا في معاقرتها بعد إسلامهما رغم وصف القرآن لها بالإثم، بل وتزعم هذه الرواية أن عمر استعمل النبيذ زمن خلافته وكان مدمنا عليه، مع أنه كان يقيم الحد على غيره،

وهو من التناقضات التي وظفها الشيعة للشنيع بها على الصحابة في أعمالهم حيث أقاموا الحد على الغير فيما استباحوه لأنفسهم[27].

هذا عن أبي بكر وعمر، أما عن معاوية فمسالك الطعن فيه أوسع، إذ لم يكن على قدر الرجلين في الفضل والسابقة، كما أن أحداث الفتنة كانت ولا تزال تشكل أرضية خصبة ألهمت مخيلة الرواة والإخباريين للذهاب بلغة القذف والتشنيع والإدانة إلى أبعد ما يتصوره عقل بشر. ولذلك، يمكن القول إن مثالب معاوية ومن ورائه كل بني أمية من أكثر المواد التاريخية استهلاكا وشيوعا في الكتابات والأندية وحتى الإنتاجات الفنية التي تكفلت الفضائيات الشيعية بالترويج لها وتسويقها على أوسع نطاق. وهذا الشيوع يعفينا من التذكير بها في هذا المقام، ويكفي الإشارة هنا إلى هذا الاعتقاد الشيعي الجازم الذي يختصر قرونا من الجدل الممتد في الزمان والمكان، والذي يضع بني أمية جميعهم على قائمة «الشجرة الملعونة» المذكورة في القرآن[28]، وهذا التصنيف يغني عن كل بيان عداه، إذ ليس بعده أبلغ في التشنيع.

3.1. ثنائية الكفر والإيمان

كان المتوقع في المجال السياسي أن يتم إدارة الصراع والتنافس على أساس الكفاءة وأهلية الاستحقاق، وليس على أساس ثنائية الكفر والإيمان. وفي عصرنا الحالي، وجدت أنظمة تمنع قوانينها ممارسة النشاط السياسي على أساس ديني، لكن هذا المنع لا يتعدى أثره الحرمان السياسي إلى الحرمان الديني على غرار ما كانت تمارسه الكنيسة الرومانية خلال القرون الوسطى ضد خصومها من الأفراد والدول. والواقع أن هذا النوع من الحرمان لم يعد له وجود خارج الدائرة الشيعية التي لا تزال تجتر هذه المفاهيم الكهنوتية كأقوى ما يكون. والمفارقة هنا أن قانون الحرمان الكنسي كان يستخدم فقط بغرض الردع، وكان ظرفيا وقابلا للرفع، ولم تكن له أية صفة أبدية إلا أن يموت الآثم على ذنبه فيستحق نار جهنم، ومن ثم فهو أرحم بكثير من قانون الحرمان الشيعي ذي الصفة الأبدية.

ووفقا لهذا الاعتقاد الذي يستمد مقوماته من نزعة طائفية موغلة في العنصرية، يبقى الإيمان حكرا على الطائفة الشيعية دون سواهم من الخلائق، وهي مسألة سلكوا في إثباتها مسالك بالغة التكلف والاختلاق، وشديدة التنطع. ففي تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ البينة /7. رووا حديثا عن ابن عباس قال: "لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: هم أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوك غضابا مقمحين[29]. وفي تفسيرهم لقوله تعالى ﴿ **رُبَما يَوَدُّ الَّذينَ كَفَروا لَو كانوا مُسلمينَ** ﴾ الحجر/2، قالوا على لسان الإمام علي رضي الله عنه: "هو أنا، إذا خرجت أنا و شيعتي، وخرج عثمان وشيعته، ونقتل بني أمية، فعندها ﴿**يَوَدُّ الَّذينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمينَ**﴾[30]. وفي تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ **"يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ** ﴾ التحريم/8، قالوا هم على وأصحابه[31]. وعلى هذا المنوال جرى حمل كل ما ورد من آيات الوعيد على التكذيب بالإمامة كقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنْ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ القصص/50 وقوله: ﴿**فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ محمد/8، وقوله: ﴿**كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ غافر/35[32].

أما الأحاديث المعتمدة عندهم في هذا الباب، فهي تجل عن الحصر، ومنها حديث منسوب إلى النبي يقول فيه: "إذا كان يوم القيامة قال الله تعالى لي ولعلي: أدخلا الجنة من أحبكما، وأدخلا النار من أبغضكما، فيجلس على(ع) على شفير جهنم فيقول هذا لي وهذا لك"[33]، وهذا الحديث يأتي عندهم تفسيرا لقوله تعالى: ﴿**ألقيا في جهنم كل كفار عنيد**﴾ ق/24[34]. ومن مروياتهم أيضا حديث "من لقى الله تعالى وهو جاحد ولاية على بن أبي طالب(ع) لقي الله وهو عليه غضبان لا يقبل الله منه شيئا من أعماله فيوكل به سبعون ملكا يتفلون في وجهه ويحشره الله تعالى أسود الوجه ازرق العين[35].

وعلى هذه القاعدة جرى الكثير من أئمة الشيعة ومحققيهم في تحديد موجبات الكفر والإيمان، والحكم على المذاهب الإسلامية وطوائفها. وفي هذا السياق ذهب العلامة ابن المطهر الحلي إلى تخصيص "الفرقة الناجية" بأتباع مذهب الإمامية دون سواهم. قال في معرض استدلاله على وجوب اتباع مذهب الإمامية: "ما قاله شيخنا الإمام الأعظم خواجة نصير الملة والحق والدين، محمد بن الحسن الطوسي قدس الله روحه، وقد سألته عن المذاهب، فقال: بحثنا عنها وعن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية والباقي في النار"، فوجدنا الفرقة الناجية هي فرقة الإمامية، لأنهم باينوا جميع المذاهب"[36]. وفي هذا المعنى يقول الطوسي أيضا: "إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على شفير جهنم لم يجز عليه إلا من معه كتاب بولاية على بن أبي طالب عليه السلام"[37].

وجريا على هذه القراءة التحريفية للشواهد النصية ذاتها تم التعامل مع كل النصوص الواردة في الكفر وموجباته ومستحقيه. وهنا تطالعنا الكتابات الشيعية بسيل من النصوص التي تنتصب عندهم دليلا على التجريم الديني لكل من لم يعتقد بولاية الإمام علي. ففي قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقوا فِتنَةً لا تُصيبَنَّ الَّذينَ ظَلَموا مِنكُم خاصَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ شَديدُ العِقابِ** ﴾ الأنفال/25، قالوا إنها نزلت فيمن نازع عليا حقه، وهو ظلم يوازي في عظمه جحود نبوة النبي والأنبياء من قبله[38]، ولذلك جعلوا التكذيب بإمامته كفرا واستدلوا عليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ النور/55، أي من كفر بولاية علي[39]. وفي السياق ذاته، أوردوا العديد من الشواهد الدالة على الإدانة الإلهية لمن تظاهر عليه كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ التحريم/4 [40]. وقالوا إن بغضهم لعلي يتبدى في فلتات لسانهم بنص قوله تعالى: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ محمد/30، وهو موقف سيسألون عنه يوم الدين بمقتضى هذا الوعيد الإلهي: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴾ الصافات/24[41]. وجريا على قانون هذا التأويل الرمزي، حملوا خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع على سبيل التحذير لهم والبراءة منهم في قوله: "لا ألفينكم ترجعون بعدى يضرب بعضكم رقاب بعض، وأيم الله لئن

فعلتموها لتعرفني في الكتيبة التي تضاربكم، ثم التفت إلى خلفه فقال: أو علي أو علي ثلاثا، فرأينا أن جبريل غمزه، وأنزل الله تعالى على إثر ذلك: ﴿**فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ**﴾ الزخرف/(41)" بعلي بن أبي طالب، ﴿ **أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ**﴾ الزخرف/42 ، ثم نزلت: ﴿ **قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ . رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ المؤمنون/ 93-94 ، ثم نزلت: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ الزخرف/43[42].ووفقا لهذه القراءة التي أريد لها أن تكون بالغة الإيحاء والتأثير، ينزل جبريل عليه السلام ليكون شاهدا على هذا العهد، ويحكم بالنفاق على الأصحاب الذين نقضوا عهد الوصي، بل وجعلوا شهادته، وهو المؤتمن على الوحي، سبيلا إلى كشف كثير من المنافقين ممن لقب بالصحابي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم[43].

المبحث الثاني: الصراع على السلطة وأزمة الشرعية

تأسيسا على هذا الموقف العقدي، تبني الرؤية الشيعية تفسيرها للتحول الذي حصل في صدر الإسلام إذ ترى في هذا التحول انقلابا شاملا استهدف نسف المشروع الإسلامي الذي تم إنجازه على امتداد مرحلة النبوة. وانطلاقا من هذا المنظور الطائفي، فإن أزمة الشرعية التي عاشتها الدولة الإسلامية على عهد الخلافة الراشدة وما بعدها لم تكن من طبيعة سياسية فقط بل من طبيعة دينية أيضا.

وهذه الرؤية تقف على النقيض من الرؤية المعهودة في الفكر السني، والتي تحصر الانحراف في مجاله السياسي، والذي اعتادت التأريخ له بعد انقضاء زمن الخلفاء الراشدين، حيث ستتحول خلافة النبوة إلى ملك عضوض.

1. طبيعة التحول وبداياته

1.1. طبيعة التحول

تغالي الكتابات الشيعية في تقدير طبيعة التحول إبان صدر الإسلام، إذ تتجاوز به بعده السياسي إلى بعده الديني إذ اعتبرته تحريفا وتبديلا للدين، بل وردة عن الإسلام ذاته. وهذا الحكم لا يمكن فهمه خارج منطق التماهي بين الإيمان والإمامة، ومن ثم يصبح كل رفض لمبدأ الإمامة ردة ومؤامرة موجهة ضد الإسلام ذاته. ووفقا للنظرية الشيعية التي تستبطن كل المفاهيم المتداولة في الكهنوت المسيحي، لا ينفك الفعل السياسي عن الفعل الإلهي، فالله وحده يملك حق التعيين، ومن ثم فإن أي تصرف من قبل المكلفين لا يقوم على التسليم المطلق بهذا التعيين هو تكذيب لله ولرسوله الذي بلغه عنه. من هنا يكون الاعتراض على فعل الصحابة في السقيفة قد حاز كامل مشروعيته باعتباره فعلا مضادا لفعل الله وندا له. يقول السيد علي الحسيني الصدر: "الحقيقة المكشوفة أنّ شيخ السقيفة وأعوانه هم الذين عيّنوا في مقابل الله خليفةً لرسول الله"[44]. ونتيجة لذلك، جزموا بأن هذا التصرف ضلال وارتداد على الأعقاب[45]، لأنه كما يقولون راجع إلى ترك الوصية، وتركها يوجب الضلالة والانحراف[46]، ولأن الصحابة بتصرفهم هذا قد "نقضوا بيعته عليه السلام، واختلفوا واغتصبوا منصبه الذي نصبه الله فيه، وغيروا وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الثقلين، فأزاحوا عليا عن مقامه، وأحكموا الأمر لأعدائه وخصومه[47]، فهم "بدّلوا ما أوصاهم به، وحرّفوا الكلم عن مواضعه، وغيّروا مسير الإسلام، وتركوا بل عادوا أهل بيت الرسول، ونسوا ما وصّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم[48].

وتكاد تجمع الكتابات الشيعية على إدانة ما تعتقده نقضا للوصية التي تعتبرها أمرا دينيا ليس لأحد الخيرة فيه، وهذا ما برر لديهم اتهام كبار الصحابة بوأد الدولة الإسلامية في مهدها، وإجهاض المشروع الإسلامي الذي شيده الرسول على مدى ثلاث وعشرين سنة[49]، إذ سرعان ما انقلبوا على أعقابهم وارتدوا من بعده. وهذا الحكم على ما يظهره من حدة وتطاول على حرمة صحابة النبي، إلا أنه من وجهة النظر الشيعية يبدو منطقيا ومبررا تماما، مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿**وَما مُحَمَّدٌ إِلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**

﴾. آل عمران/144. ومع أن هذه الآية نزلت في سياق تاريخي خاص لتجاوز مضاعفات هزيمة أحد وتأثيراتها السلبية على المسلمين، ومع أن التفاسير الشيعية لا تنكر اختصاص الآية بهذا السياق التاريخي، إلا أن الكثير من الكتابات والتفاسير الشيعية حرفت الآية عن سياقها الأصلي لتؤسس عليها حكمها بإدانة الصحابة بتهمة الردة. ولقد أظهرت الأدبيات الشيعية احتفاء بالغا بهذه الآية و أضرابها من النصوص القرآنية و الحديثية، وسخرت كل ما أتيح لها من آليات التأويل والتوجيه بما يجعلها شواهد إثبات على دعوى الإدانة، حتى أصبح هذا التوجه من التقاليد الراسخة التي ما فتئت هذه الأدبيات تعمل على استنساخها وترسيخها في الوعي الشيعي في القديم كما في الحديث[50].

وبالنظر إلى هذا الموقف الذي يتأسس على مركزية الإمامة في الاعتقاد الشيعي، فقد نشأت لديهم قناعة راسخة بأن كل الانحرافات التي أصابت الأمة الإسلامية إنما تعود إلى الانحراف عن هذا الأصل. فهي –كما يقولون– "العلة الأساسية لكلِّ أمراضها وويلاتها المتلاحقة، ونقطة الاختلاف التي تشعَّبت عنها كلُّ موارد التفرُّق المتفاوتة... وهو الأمر الذي انسحبت ظلاله على مسيرة الأمة الإسلامية ابتداء من تلك اللحظات الحساسة التي شهدت انعقاد مؤتمر السقيفة[51]. وبعض الكتابات تذهب بهذا الانحراف إلى أقصى مداه إذ تعتبره تحريفا للإسلام، ودسا للنفاق والشقاق والتفرقة والبغضاء والعداء فيه، وسببا لكل التفرقات والمشاكسات والمخالفات، وقيام المذاهب المتعددة، والفرق المختلفة التي نشأت في الإسلام، وتصفه بالفتنة الكبرى، وترى أن هذه الموبقات إنما هي نتيجة حتمية ومنطقية لذلك الانقلاب متمثلة قوله تعالى: ﴿**وَالَّذي خَبُثَ لا يَخرُجُ إِلّا نَكِدًا**﴾ الأعراف/58[52].

وبغض النظر عن المصداقية العلمية والتاريخية لهذه الرؤية، أعتقد أن هذا التفسير الذي يدين الأمة بكل أطيافها وعلى مدى امتدادها التاريخي له كلفته الباهظة، فإذا أخذنا بهذا المعيار الطائفي الذي جعل من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لحظة فارقة ليس في تاريخ أزمة الشرعية فحسب، بل في تاريخ انحراف الأمة وردتها عن دينها، فإنه يكون بذلك قد حكم بضلال الأمة

منذ لحظة تشكلها التاريخي، و إلى أن تقوم الساعة، إلا أن يتحقق اللطف الإلهي بنهاية الغيبة الكبرى، وهو المبدأ الذي بدأت تتصدع أركانه تحت سلطان ولاية الفقيه.

2.1. بداية التحول

ترتبط بدايات التحول في الوعي الشيعي بحادث السقيفة التي يعتبرونها حدثا مفصليا في تاريخ التحول السياسي والانقلاب على الشرعية. ومع أن الكثيرين يعودون بخيوط هذا التحول إلى حياة النبي، إلا أن مخططاته لم تكن قد تكشفت فعليا – بحسب اعتقادهم– إلا في سقيفة بني ساعدة التي شهدت أكبر تمرد على إرث النبوة. ومع أن الأطراف المتهمة في التخطيط لهذا الانقلاب عاشت في كنف النبوة وكانت من المقربين وكبار المستشارين للنبي، إلا أنها في تقدير غالبية مفكري الشيعة ومؤرخيهم كانت تمثل قوة تآمرية نفاقية مندسة، عاشت مقموعة تحت سلطان النبوة، وبقيت تترقب الفرص لتظهر علنا ما كانت تعد له سلفا في الخفاء. وبحسب ما يقوله العلامة السيد محمد الموسوي، وهو أحد المراجع الشيعية المهمة الملقب بسلطان الواعظين، فـ"هؤلاء المرتدّون هم في الأصل مجموعة من المنافقين، عاشوا النفاق أيّام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكل باطني وسرّي، وما إن توفّي النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ وأظهروا هذا النفاق القديم، وذهبوا إلى سقيفة بني ساعدة للحصول على السلطة تاركين جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خلف ظهورهم[53]. وحسب العلامة الموسوي دائما، فإن "أوّل فرصة أظهر فيها "المنافقون" اعتراضاتهم ومعاكساتهم وبشكل ظاهري أمام الملأ، هو يوم مرض النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وكان عمر بن الخطاب أوّل مَن فتح لهم الطريق عندما اعترض أمامهم وعلى مسمع من الناس على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ومنعه من كتابة الوصية[54]. هذه الشواهد تختزل الموقف الشيعي برمته، وهو موقف يتأسس على فرضيتين اثنتين: الأولى، العودة ببداية التحول إلى فترة مرض النبي، وهي من الأفكار الشائعة والمستهلكة بكثرة في الأوساط الفكرية الشيعية، والثانية تحديد الجهة المتهمة في التخطيط لهذا التدبير الانقلابي، وقد ورد النص عليها بالاسم صراحة، وهي أيضا من الدعاوى الشائعة.

ووفقا للمنظور الشيعي، فإن هذه القوى المتآمرة المزعومة، لم تكن لتعلن تمردها في حياة النبي، وكانت تترقب وفاته لتبادر لتوها إلى سقيفة بني ساعدة ولما تواري بعد جثمانه. فبينما كان آل النبي وأوصياؤه من بعده منشغلون بتجهيزه ودفنه، كان أصحاب الأمس يتسابقون ويتنازعون أيهم أحق باغتصاب الحكم من بعده[55]. صورة مأساوية ومؤلمة للضمير الإسلامي بكل تأكيد، وعندما يتم استعادة التاريخ من خلال هذا المنظور الدرامي وتحت وقع المؤامرة، تكون المسألة قد حسمت وجدانيا لفائدة الأطروحة الشيعية التي تجعل من فرضية الصراع قطب الرحى في تقويم مرحلة تاريخية يعتقد الكثيرون حتى من غير المسلمين أنها أطهر لحظة تاريخية عاشتها البشرية.

وانسجاما مع هذه الأطروحة التي تروج لها فرضية الصراع، تبقى السقيفة من وجهة نظر المعتقد الشيعي أخطر تحول شهده تاريخ الإسلام بعد وفاة صاحب الرسالة مباشرة، بل وتعتبره حدا فاصلا بين عهدين يختلفان كل الاختلاف[56]، و"نقطة تحول خطير، ومنعطف شديد الالتواء، لا في التاريخ الإسلامي وحده، بل في التاريخ الإنساني كله، من لحظة أن حولت أولهما عن مجراه، وخرجت خلاف المنتظر أو المظنون بتراث رسول الله من حوزة الأعزة الكرام من آل بيته الأطهار إلى حوزة رفيق الغار"[57]. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا بأن هذا النص نموذج للتبريرات العقدية التي تتخذ من نظرية النص مشجبا تعلق عليه كل رزايا التاريخ، الواقعة منها والمفترضة، وهي نغمة تطارد القارئ ولا تدع له فرصة للاختيار، إذ لا اختيار فيما قضى الله فيه ورسوله، فالاختيار في هذا المقام جريمة دينية تنقض الإيمان كما سبق بيانه.

2. من الردة إلى السلطة: مؤامرات الأصحاب

تبنت النظرية الشيعية في تفسيرها للانكسار السياسي نظرية المؤامرة بامتياز، إذ لم يكن بمقدور كل المقاربات التي تتبنى هذا التفسير مجاراتها من حيث إظهار حجم هذه المؤامرة وآثارها

السياسية والدينية. وهذه الفرادة التي تميزت بها النظرية الشيعية تعود بالأساس إلى التوظيف المكثف لعنصر الدراما في تصوير الحدث التاريخي، وما يستدعيه من قوة الخيال في التأليف والتأويل معا. وهذان العنصران المتلازمان يشكلان معا عمدة التفسير التآمري إذ لم تبد المقاربة الشيعية أي اعتبار لأخلاقيات البحث العلمي، أو التزام بالأعراف والتقاليد العلمية المتبعة في منهج النقد التاريخي من جهة، وقواعد التأويل العلمي من جهة ثانية. ولعل النماذج التي سيرد ذكرها تكون شاهد إثبات على حجم الزيف الممنهج الذي مارسته الأدبيات الشيعية، وهو ما جعل منها عملا فنيا بامتياز، ليس له من هدف سوى تعبئة ما أتيح له قوة الإبداع والخيال في ترسيخ فكرة المؤامرة دونما اكتراث بحقائق التاريخ وحرمة الأشخاص.

1.2. جيش أسامة: تدبير النبي ومؤامرة الأصحاب

تقول الرواية الشيعية، إن النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الأخير، كان يتوجس خيفة من أصحابه، وكان يعلم أنهم لن ينفذوا وصيته، فكان من تدبيره لإحكام هذا الأمر أن يخرج رؤوس المهاجرين والأنصار من المدينة، ويبعث بهم في جيش أسامة حتى لا يشهدوا وفاته، فيقطع عليهم الطريق ويتمكن الأمر لوصيه والمؤتمن على ميراثه. واستكمالا لعناصر الإثارة والتهويل، تشرح لنا الرواية الشيعية كيف غامر النبي بإخراج الجيش مع أنه يعلم أن الفتن قد أقبلت كقطع الليل المظلم وهو يرقب حركة المنافقين وجموع المرتدين من حوله، مما ينبئ بجلالة ما كان يعد له. وتخبرنا الرواية أيضا كيف أمر شابا في مقتبل العمر على رؤوس الأنصار والمهاجرين ومشايخهم تمهيدا لقبول الناس بإمرة الإمام علي الشاب، وكيف زج في جيشه بكل رؤوس الصحابة المتطلعين إلى الحكم دون علي ومن كان في صفه من الموالين. وحتى يتم هذا الأمر كما خطط له، شدد عليهم في الخروج، لكنهم تباطأوا، وتذرعوا بشفقتهم على النبي، وتظاهروا بعدم الرضا بإمرة أسامة، وأصروا على عصيان أوامر الرسول من غير حياء ولا خجل ولا خوف من الله ورسوله، وتوطنوا على غضبه، واستضعفوه وهو مريض، فتمردوا عليه وأطلقوا الإشاعات عن موته للرجوع إلى المدينة[58].

هذا الإخراج الفني الدرامي للمشهد الأخير من حياة النبوة، يقدم عناصر لا غنى عنها في تثبيت فرضية الصراع وتحديد هوية الأطراف الفاعلة فيه. وإنه لأمر بالغ الرمزية أن يكون النبي طرفا مباشرا في هذا الصراع، وهو يقف خائفا متوجسا، بل وعاجزا عن إمضاء عهد الوصية لخلفائه من بعده، فلا يملك غير الدعاء، فيلهج بلعن المتخلفين عن جيش أسامة. وإذا كان هذا حال النبي وهو المؤيد بوحي السماء وملائكة الرحمن، فكيف بمن خلفه من أوصيائه المستضعفين؟ ترى أية قوة هذه، وأي مكر هذا الذي يتحدى القدر، وينجح في الحيلولة دون إتمام عهد النبوة الذي أبرمه رب العزة في السماء؟ كيف نجح النبي في قهر العرب وتهديد الروم في تبوك، وهو ذا يهم ببعث جيش أسامة خارج الحدود المألوفة، ثم يعجز عن ثلة نسجها بيده، وتربت في كنفه وتحت رعايته، فكان منهم من كان يستنصر به، وكان منهم رفيق الغار وأمين الوحي؟ وأين العناية الإلهية من كل هذا، أتراها تترك نبي الله وأوصياءه ودينه وأمته في العراء، ففيما كان عناء النبي إذن؟ وأخيرا، أحقا أن آخر ما لهج به النبي وهو يجود بنفسه كان لعنه لمن كانوا بالأمس رفقاء دربه، وأعمدة رسالته، وكتبة وحيه؟ إنه لفشل غير مسبوق في تاريخ أولي العزم من الرسل أن يكون هذا مصير خاتم الأنبياء، المبعوث رحمة لكل العالمين وإلى يوم الدين، فأين الوعد الإلهي بكمال الدين وإتمام النعمة؟

2.2. مرض النبي: كتابة الوصية ونقض العهد

في حبكة لا يعوزها الخيال الجامح، تصحبنا الرواية الشيعية في جولة ثانية من مؤامرات الأصحاب ضد نبيهم حتى وهو في نزعه الأخير. وتذهب الظنون بمخيلة الكتاب المتعبدين بنظرية الإمامة إلى أبعد مداها في استثمار قصة كتابة وصية النبي صلى الله عليه وسلم وهو في نزعه الأخير لتثبيت تهمة الردة والنفاق على كبار الصحابة وشيوخ المهاجرين والأنصار. هكذا تضعنا الرواية الشيعية أمام سلسلة من الحلقات الصدامية التي يكابد فيها النبي كيد الأصحاب الذين صنفوا دينيا ضمن خانة المنافقين، لينتهي المشهد نهايته المألوفة في الحوادث الدرامية، حيث يصرع الحق، وتستشهد الفضيلة، وينتصر البغي، وتستسلم الأمة للشقاق والعناد.

ضمن هذا السياق الدرامي تحدثنا هذه الرواية الشيعية كيف أن النبي عندما فشلت خطته في جيش أسامة، وتأكد لديه جليا ما عليه القوم من التواطؤ على الشر، لم يجد بعد هذا خيرا من أن يكتب لهم كتابا فاصلا بوصية علي فلا يضلون بعده أبدا[59]. هكذا يتم تفسير قصة الكتاب باعتباره تدبيرا نبويا يهدف إلى تطويق قوى الشر المتربصة بإرثه، وعزمه على فضح نواياها وكشف سرائرها بعد أن تأكد لديه خيانة الأصحاب. تقول الرواية: "ورغم لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمن تأخر، فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا تخفى عليه نواياهم ومكائدهم، ولا يخفى عليه انقلابهم، فأراد أن يبرهن على سوء نواياهم فطلب دواة وبياضا ليكتب لهم عهدا لن يضلوا بعده أبدا، وهنا كشر الشيطان عن وجهه المملوء بالحقد والحسد والمكيدة والخيانة على لسان أحد تلك العصبة المتآمرة فقال كلمته التي ألقى بها الفتنة: إن الرجل ليهجر، حسبنا كتاب الله. وما كاد يقولها حتى تلقفها أعوانه وأحدثوا ضوضاء أباحوا بها عن نواياهم الكمينة، وأغراضهم الدفينة"[60]!

ومع أن النبي –كما هو مقرر في كتب الحديث السنية– لم يكن قد كشف مضمون هذا الكتاب، تجزم الرواية الشيعية بأن الأمر يتعلق بوصية علي، بل وتجزم بأن عمر، وهو رأس "العصبة المتآمرة" كما تصفه الرواية، كان قد اخترق بذكائه حجب الغيب وهو يسابق الزمن، إذا أدرك مراد النبي من الكتاب، فشغب عليه ونجح في الحيلولة دون إتمام عهد الوصية. ولا يقف الاختلاق عند هذا الحد، بل إن الرواية تنسب إلى عمر، وقد تم له الأمر، اعترافه شخصيا زمن خلافته لابن عباس بهذا الكيد[61].

وفي سياق الإدانة دائما، وهو من الثوابت المميزة للرواية الشيعية في هذا المجال، يضيف هذا الحادث شاهدا آخر على جو المؤامرات التي اتهم بها الصحابة في صراعهم على السلطة، وهنا يتم الربط بين الأحداث لتثبيت خدعة التآمر، فتذكرنا الرواية بأن هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب عمر حال منعه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من كتابة الوصية هم أنفسهم الذين كانوا قد وقفوا إلى جانب من تخلّف عن جيش أُسامة وعادوا إلى المدينة للحيلولة دون استقرار أمر

الخلافة لعلي[62]، وكان من بين هؤلاء أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير، وبشير بن سعد وغيرهم. ما من شك في الكلفة الباهضة لهذا التفسير الذي يتقرب إلى الله بالمتاجرة بشرف الصحبة، فضلا عن إضراره بمنصب النبوة ذاته حيث ينتهي المشهد دوما باستسلام النبي أمام كيد وخديعة من كانوا ثمرة كفاحه الطويل، لكنه ثمن لابد منه في مشهد درامي لا غنى عنه في ترسيخ فرضية المؤامرة.

3.2. وفاة النبي وفتنة السقيفة

تشكل السقيفة في الوعي الشيعي أخطر منعطف في تاريخ مؤامرات الصراع على السلطة، وهي بذلك استحقت عندهم لقب "أم الفتن" بالنظر إلى ما تمخض عنها من نتائج على المستوى السياسي والديني. ولاشك أن إثبات حدث من هذا النوع وهذا الحجم يحتاج إلى ذكاء غير عادي في توليف تفاصيل الأحداث، وتوجيه مساراتها، وتوزيع الأدوار بين أبطالها. مع هذه القراءة التآمرية، يتم الحديث عن أكبر صفقة في تاريخ الإسلام يقع فيها المتاجرة بالدين والمبادئ والصحبة، تبادل فيها الأدوار كبار الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعائشة وأبو عبيدة بن الجراح وسالم بن حذيفة، وذهب ضحيتها الإمام علي ومعه شرعية الدولة وقدسية الدين. في هذا السياق التآمري، تتحدث القراءة الشيعية عن مناورات سياسية دارت فصولها في الخفاء وخلف الكواليس، مبالغة في التكتم والسرية حتى يتم الأمر في غفلة عن أصحابه الشرعيين المنشغلين بتجهيز جثمان النبي. وتتحدث هذه القراءة عن تدبير الفتن السياسية بين صفوف الأنصار، وهم أكبر كتلة سياسية منافسة، وعن حروب مدبرة، ومكائد محبوكة، لتصفية المتمسكين بحق آل البيت، وهذه بعض الوقائع مما نسجه الخيال التاريخي ورسخه الاعتقاد الديني في الوجدان الشيعي:

- **مسرحية إنكار موت النبي–صلى الله عليه وسلم–:**

تتحدث بعض الروايات عن تلك المسرحية التي تظاهر فيها عمر بإنكار موت النبي، وقد طاش عقله، واستل سيفه يتهدد كل من يدعي موت النبي، وهيهات أن يكون قد دهش فيخفى عليه موت النبي وهو هو من نعرف. أما عن الوجه الخفي لهذه المسرحية فتقول الرواية إن أبا بكر كان لحظة وفاة النبي غائبا بالسنح، وكان بينه وبين عمر تفاهم مسبق بهذا الشأن، فأراد عمر أن يصرف القوم الذين اشرأبت أعناقهم إلى بيعة علي، ويشغلهم عنه ريثما يصل أبو بكر. وليس إلا أن جاء صاحبه ووقف خطيبا يذكرهم بما نزل من القرآن في موت النبي، ولم يبق إلا أن يخرج عمر من موقفه الحرج بلباقة، فصعق إلى الأرض كأنما تحقق موت النبي من جديد، مظهرا القناعة بقول صاحبه، ثم لم يلبث أن غادر الرجلان إلى سقيفة بني ساعدة[63].

- **عائشة وتدبير فتنة الأوس والخزرج**

تنسب الرواية الشيعية إلى عائشة دور "البطولة" في حياكة "فتنة السقيفة"، وهنا تظهر عائشة بمظهر السياسي المتمرس بالحيل والمكائد. وبمهارة نادرة، تتمكن من زرع بذور الشقاق والوقيعة بين الأنصار، كما تتمكن في الوقت نفسه من خديعة آل النبي وشغلهم بتجهيز النبي، لتؤمن بذلك شروط وصول أبيها ورفاقه إلى السلطة. تقول الرواية: "إن عائشة ألقت ليلتها الفتنة بين الأوس والخزرج، بقولها للأوس إن الخزرج يحيكون ويدبرون الأمر لانتخاب خليفة منهم، وقالت للخزرج إن الأوس يريدون انتخاب خليفة منهم، فألقت الغيرة والحسد والتنافس بينهم، وصباحا يبادرون رغم مرض زعيم الخزرج إلى سقيفة بني ساعدة لانتخاب أمير، وفي نفس الليلة تحرض بني هاشم لتجهيز وتغسيل وتكفين ودفن رسول الله، وهي تدري أن الصحابة الموالين لآل بيت الرسالة سوف لا يفارقونهم، وهكذا دبروا الأمر بليل، فاغتنموا انشغال الهاشميين والصحابة الخصوصيين المعارضين لهم، أشغلوهم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأوقعوا النزاع بين الأوس والخزرج، وجاءوا على تدبير مكيدة في وقت بلغ الحسد والحقد غايته بين الأنصار[64]. هذا الإخراج الدرامي للحدث التاريخي ربما توفر له عنصر التشويق، وهو شرط ضروري في خطاب كهذا يتسلح بالإثارة الوجدانية، لكنه في النهاية يشكل

إدانة صريحة لآل البيت، هؤلاء الذين تخلوا – كما تخلى غيرهم– عن تجهيز جثمان النبي لولا تحريض عائشة. ترى، أكان ينطبق عليهم حكم القرآن بالارتداد على الأعقاب لولا هذا التدبير الماكر من عائشة؟ رب ضارة نافعة!

وفي تناقض لا يمكن تبريره خارج منطق الاستنتاجات الذهنية والأحكام المسبقة،

تذهب روايات شيعية أخرى في تفسير صراع الأنصار إلى التناقضات القبلية المتوارثة من عهد الجاهلية، وهي التناقضات التي تفجرت لحظة وفاة النبي، فحمل الخزرج زعيمهم المريض سعد بن عبادة إلى سقيفة بني ساعدة لتنصيبه زعيما للأنصار. ولكن الأوس الذين كانوا يفتقرون إلى زعامة سياسية تعادل كفاءة سعد بن عبادة، دفعتهم كبرياؤهم إلى أن ينضووا تحت راية أبي بكر حال وصوله المفاجئ، وكان ذلك طريقهم الوحيد ليسقِطوا أحلام الخزرج ويبدّدوا آمالهم[65]. وفي السياق نفسه، تتجه أصابع الاتهام إلى أبي بكر الذي استغل هذه التناقضات القبلية بذكاء فنبش الدفائن، وأيقظ الضغائن[66].

ولسنا ندري هنا أي القراءات والروايات نصدق. ولكن، بغض النظر عن هذا التضارب الذي تثيره الرواية الشيعية حول أسباب الصراع بين الأنصار، وبغض النظر عن حقيقته التاريخية أيضا، لا تخلو هذه الروايات من دلالة على ما سيقت لأجله. فهي موجهة قبل كل شيء ضد شخص أبي بكر لإثبات عدم صلاحيته للمنصب الذي يدعي استحقاقه بموجب إجماع السقيفة، إذ تعطي إيحاء قويا على عدم نزاهته في سعيه المحموم نحو السلطة، وهي إساءة بالغة الأثر لتعلقها بمصداقيته الدينية والأخلاقية. وتعميقا لهذا الإحساس في وجدان المتلقي، تذهب بعض هذه القراءات إلى حد اتهام أبي بكر بالتخطيط لاغتيال علي الذي ضاقت به السبل، وانقطع به الرجاء، ولم يبق له سوى أن "يلقي بنفسه على قبر رسول الله باكيا قائلا ما قاله هارون لموسى ﴿**يا ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني**﴾[67]. وقطعا للشكوك حول واقعة الاغتيال هذه، تذكرنا هذه الروايات بما نزل فيها من آيات الذكر الحكيم، ولعلها بأثر رجعي، لتثبت فؤاده وتؤازره في محنته وبلائه، ففي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿**وتوكل على اللّه**

وكفى باللّه وكيلا﴾، وقوله: ﴿**وتوكل على العزيز الرحيم**﴾، وقوله: ﴿**واللّه يعصمك من الناس**﴾، وقوله: ﴿**وتخشى الناس واللّه أحق أن تخشاه**﴾ ونحوها[68].

ومن جهة ثانية، أريد لهذه الصراعات والتناقضات القبلية المختلقة أن تقوم بدور العصا السحرية في تفسير هذا الانقلاب العجيب في موقف الأنصار، وفي تحول ولائهم عن آل بيت الرسول، وارتمائهم المفاجئ في أحضان أولئك المغتصبين الذين تقول عنهم الرواية إنهم "لم يصدِّقوا ما يحدث، ولم يكونوا يتصوّرون ولا يحلمون بهذا المستوى السريع من الانتصار، وقد غاب عنهم السبب والدافع الذي كان وراء انضمام الأوس معهم[69]! وتزعم هذه القراءة أن اجتماع الأنصار في السقيفة لم يكن بغرض تعيين خليفة للنبي، بل فقط "لترشيح زعيم زمني لا دينّ للقبيلتين[70].

وهذا التفسير الغريب على المنطق الديني السائد آنذاك، بالرغم مما يظهره من افتعال، وبالرغم مما فيه من تكلف بالغ في إسقاط التقاليد السياسية المسيحية على هذه المرحلة المبكرة من صدر الإسلام، وبالرغم من كل ما ينطوي عليه من انتهاك للحقيقة والتاريخ، إلا أن استدعاءه كان ضروريا لتبرير القول بمبدأ الوصية، في محاولة يائسة لتوسيع دائرة الموالين، خاصة الأنصار الذين يعادلون من حيث الرمزية الدينية والتاريخية كفة المهاجرين "الناكثين"[71].

وكما هو شأن التفسيرات الذهنية المجردة، يضعنا هذا التفسير أمام مفارقة صارخة، إذ كيف أمكن لهؤلاء مع فضلهم وسابقتهم في الدين أن يقدموا انتماءاتهم العصبية والقبلية على ولائهم الديني ولما يواروا بعد جثمان نبيهم، وكيف أمكنهم العدول بهذه السرعة الخاطفة عن ولائهم لآل البيت، ونقضهم عهدهم وموالاة أعدائهم "المرتدين على الأعقاب"؟ إن هذه القراءة الأيديولوجية المكثفة تضعنا أما صورة كالحة لجيل كان ثمرة النبوة، وتأدب بأدب القرآن، وحظي بتزكية إلهية صارت قرآنا يتلى إلى قيام الساعة، أفيعقل أن ينقلب هؤلاء في لحظة خاطفة من الزمن، وجثمان النبي ينتصب غضا طريا بين أظهرهم؟

- **ما وراء الكواليس :**

بهذه اللغة العاشقة دوما للإدانة، تستمر حكايات المؤامرات في فصل جديد من فصول مغامرات الوهم بشخوصها المعهودة، لكن حظ هذا الفصل من الإدانة ليس له نظير، فالأمر جلل، إنه الرقص على جراح النبوة، واستغلال بشع للحظة الغفلة والانكسار، لحظة بلغت من الشر أن إبليس قرر أن يشهد توقيعها بنفسه. وإذا كنت أيها القارئ في شك من أمرك، فاستمع إلى هذا البيان الذي بلغ من جلالته أن يختص بنقله الخضر عليه السلام بلحمه ودمه، وينزل في تأكيده وحي السماء. تقول الرواية: "دخل خضر على علي(ع) يوم السقيفة وقال: رأيت إبليس على قارعة الطريق يرقص و يقول: يوم كيوم آدم، ويصدق ذلك قول اللّه تعالى: (ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين). وقال على لسان إبليس: (فبعزتك لا غوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)[72].

في ذلك اليوم المشهود حيث جموع آل البيت المنكوبة بمصابها منشغلة بتجهيز الجثمان الطاهر، وفي غفلة منها يصل اثنان من الأوس مدفوعين بحقدهم القبلي على سعد بن عبادة الخزرجي، ليسرا إلى عمر بخبر السقيفة[73]. هكذا كانت بداية هذه المؤامرة الجديدة التي جرت فصولها الأولى وراء الكواليس، والتي أثمرت أكلها إذ سجلت ميلاد لحظة فارقة في التاريخ، إنها لحظة الحسم التي انتهكت فيها الشرعية وإلى يومنا هذا. ولأن المسألة في غاية من الخطورة، فقد خطط لها لكي تجري في غاية السرية والتكتم، تكتم تقول عنه الرواية إنه ليس من السهل الإحاطة بأسراره، ومن ثم ترشحه ليصطف مع قائمة البحوث البكر التي لم يقرع بابها الباحثون بعد[74]. لقد رأى المدبرون لهذا الأمر، وهم بحسب الرواية أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، أن "الأصلح لهم أن يتداركوا الأمر بأنفسهم من دون أن يشيع الخبر، وحينئذ يستطيعون أن يهيمنوا على الوضع ولا يقع ما يحذرون، إذ يكبسون على الأنصار اجتماعهم السري في جو هادئ ممن يتحمس لعلي[75]. وحسب رواية أخرى، فإن هذه السرية إنما تجد

مبررها في أن عليا "كان هو المتعيَّن في وعي الأمّة الإسلامية لسوابقه وفضائله وكمالاته ونزول أكثر من آية في حقّه[76].

4.2. مجلس الشورى: مأسسة الاستبداد وشرعنة التزييف

استنادا إلى هذا المنظور التآمري دائما في قراءة الأحداث، يتجاوز الاتهام الشيعي دائرة الأفراد إلى مؤسسات الدولة حيث تبدو المؤامرة عملا منظما تسنده أجهزة الدولة ذاتها. إن مجلس الشورى الذي شكله عمر لتعيين الخليفة بعده كان صفقة سياسية ليس لها من هدف سوى استمرار اقتسام السلطة بين المتنفذين. وحسب هذه القراءة، فإن قرار تعيين عثمان كان قد حسمه عمر سلفا "وفاءً للرفقة والصداقة التي كانت بينهما والتعاون الدائم بينهما، وردّاً للجميل الذي قدّمه عثمان لعمر عندما كتب اسمه في وصيّة أبي بكر"[77]. وأما عن دور مجلس الشورى، فقد كان شكليا، ذلك أن الشروط الاستبدادية التي وضعها عمر لم يكن لها من هدف سوى إضاعة حق أمير المؤمنين وتثبيت ولاية عثمان[78]. أما عن تخصيص عثمان بالولاية، فترى فيه هذه القراءة تفويتا للسلطة إلى بني أمية[79].

والواقع أن حادث مجلس الشورى يشكل في المخيال التاريخي الشيعي حدثا مفصليا باعتباره سجل نهاية مأساوية للشرعية باسم الشرعية. ومع كل الأهمية التي يوليها التفسير الشيعي لهذا الحدث المفصلي، إلا أنه يظل واحدا من المتواليات التي وضعت أسسها زمن النبوة، تلك المرحلة التي تشكل في الوجدان الشيعي مرحلة الحسم بامتياز، وهو ما يعني أن النكبات المأساوية التي منيت بها الشرعية لاحقا، إنما كانت محصلة طبيعة للنكبة الأم التي ما فتئت تتناسل في الزمن، ووفق إيقاعات متسارعة، وعبر محطات دامية سجلت نهايات حزينة. وما من شك أن تلك الصدامات الدموية التي خاضتها الجماعة الإسلامية الناشئة في الجمل وصفين وكربلاء، وما تمخضت عنها من سقوط مريع للشرعية، شكلت خزانا عاطفيا لا ينضب، بل ووفر للنظرية الشيعية أهم ركيزة في بناء تفسيرها التآمري، حيث شكلت فكرة المظلومية المحور الأساس في سجالاتها المستمرة التي انتصر فيها البعد الوجداني على الحس النقدي التاريخي.

خلاصة واستنتاجات :

هذه القراءة الأيديولوجية المكثفة تضع أمامنا جملة من المفاتيح التي تتيح لنا فهم مجموع الأطروحات المعاصرة المنحازة التي تشترك جميعها في إدانة التجربة السياسية الإسلامية منذ لحظة تأسيسها، والتي تتخذ من التاريخ سلاحا موجها ضد دعاة المشروع الإسلامي الإحيائي، وضد الوحدة الإسلامية القائمة على أساس وحدة العقيدة والدين. والحقيقة أن الأطروحات الحداثية الأكثر تطرفا لم ترق في حجم إدانتها إلى ما قرره أئمة الشيعة بهذا الخصوص، لكن المفارقة هنا أن المحاكمات الشيعية لتاريخ الإسلام السياسي والديني كانت تتم باسم الدين ولأجل السياسة. ولعل الخلاصات التي تحملها هذه الخاتمة تقدم بعض ما يؤيد هذا الاستنتاج:

1. فيما يتعلق بمصداقية التجربة السياسية الإسلامية، تعكس الكتابات الشيعية حول صدر الإسلام صورة درامية لمجتمع يعيش لحظات عنيفة من التقلبات السياسية، والمؤامرات المتوالية، والأزمات التي لا تزيدها الأيام سوى تعقيدا وعمقا، والتي لا تتوقف إلا على أنقاض المشروع الإسلامي الذي ارتبطت نهايته باستشهاد الإمام علي، بكل ما لهذا الاستشهاد من رمزية البطولة والفداء، وما تركه من ألم الجراح، أسفا على ميراث النبوة الذي أطيح به على أعتاب دولة الملك وسدنة القهر والجور. هكذا تتراءى الأحداث السياسية في الوعي الشيعي، إنها سلسلة من المتواليات الممتدة في الزمن، بدءا من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومرورا بمؤتمر السقيفة، ومجلس الشورى الذي أفرز ولاية عثمان، وانتهاء بأحداث الفتنة في موقعتي الجمل وصفين. مؤامرات حيكت في الظلام، يقودها أصحاب الأمس، شعارهم التبديل والتحريف، وقبلتهم السلطة ودحر آل بيت الرسول. هكذا يبدو المشهد السياسي، مثيرا وصادما، وموجعا للوجدان الإسلامي. وتأتي فصول هذا المشهد لتعمق هذه الصورة الدرامية، بتفاصيل مثيرة، وحكايات مستفزة، تدخل فيها الخيال لترميم ما شحت به الوقائع التاريخية، مسلك ربما رأى فيه البعض إخلالا بمقتضى الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث العلمي، لكن للضرورة أحكام.

2. إن هذه القراءة المؤدلجة مسئولة إلى حد كبير عن حالة الإرباك التي يعاني منها الوعي الإسلامي المعاصر، ونظرته إلى تاريخه السياسي والديني، ليس فقط لما تسببه من انقسام الوعي الجماعي للأمة، بل أيضا لما تسببه من إضعاف لقدرات الأمة على مجابهة التحديات الخارجية، وإثبات كفاءتها في الحوار بين الحضارات والثقافات. إن هذه الرؤية الصدامية الموتورة والمسكونة بروح عدمية وإقصائية جد متطرفة، تضعنا أمام مآزق تاريخية وحضارية شديدة الخطورة، فهي تؤكد مشروعية الشكوك المعاصرة حول مصداقية التجربة السياسية الإسلامية، والتحقق التاريخي لدولة الشريعة، طالما أن هذه الدولة وشرعيتها الدينية لم تتحقق في الوجود البشري خارج زمن النبوة المكلوم، وهو ما يعني أنها فشلت في أول اختبار لها على أرض الواقع.

وفي هذا السياق المثقل بظلال العدمية، يرى الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي أن "وحدة الأمة الإسلامية التي لا نظير لها، والتي تشكلت في ظل الرسول القوي، قد تزلزلت بعد رحلة نبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وسلم، وعصفت بالمؤسسة السياسية بعده أزمة الشرعية، ثم اشتدت في زمن الأمويين"[80].

3. وفيما يتعلق بأثر هذه القراءة على وحدة الأمة، وتوحدها على أساس الدين والعقيدة، تضعنا هذه القراءة أمام مآزق من الصعب جدا تجاوزها في ظل التفسير الديني للصراع، والذي يجعل من الاعتقاد فيصل التفرقة بين شركاء الدين والعقيدة، أولئك الذين وضعهم التصنيف الشيعي على طرفي نقيض بين الأطهار المعصومين، والأغيار الملعونين.

لقد حسمت الرواية الشيعية أمرها بهذا الخصوص، وقطعت الشك باليقين، اعتمادا على خبر منسوب إلى النبي يسأل فيه رب العزة وقد رأى أسماء الأئمة مكتوبة على ساق العرش فقال الله تعالى: "يا محمّد، هذه الأئمّة بعدك مطهّرون معصومون وأعداؤهم ملعونون"[81]. هكذا يضعنا هذا التقسيم الشيعي للأمة الوسط التي حمّللها الوحي أمانة الشهادة على الناس أمام فريقين بينهما برزخ لا يبغيان، فريق ينتسب إلى "شجرة طوبى" المنبثقة من دوحة النبوة، وهو الفريق الذي كللته الرواية الشيعية بآيات الوعد والبشارة، وضمنت له الجنة قبل اليوم الموعود، وفريق

ينتسب إلى شجرة زقوم، الشجرة الملعونة في القرآن، وهو الفريق الذي رجمته الرواية ذاتها بآيات الوعيد والنذير، وقذفت به إلى نار الجحيم. والمؤسف في هذه القسمة الضيزى، أن هذا الفريق الممتد في التاريخ يمثل القاعدة الأكثر اتساعا في الأمة الإسلامية ممن لم يدينوا بعقيدة الإمامة. هذا ما تقوله الرواية الشيعية وبلغة لا تعوزها الحبكة البلاغية، كما في هذه الرواية المنسوبة للإمام علي رضي الله عنه: "يا قنبر أبشر وبشر واستبشر، فلقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو على أمته ساخط إلا الشيعة، ألا وإن لكل شيء عروة وعروة الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء شرفا وشرف الإسلام الشيعة، ألا وإن لكل شيء سيدا وسيد المجالس مجالس الشيعة، ألا وإن لكل شيء إماما وإمام الأرض أرض تسكنه الشيعة[82].

4. هذه القسمة تتجاوز الأبعاد الدينية المجردة لتطاول شبكة العلاقات الاجتماعية، وتقطع أوصال الجماعة الإسلامية الواحدة، حيث تنتصب الإمامة معيارا للولاء والبراء، وتنتظم على أساسها علاقات الأفراد داخل المجتمع وما يثبت لهم من حقوق. ويكفي التذكير في هذا المقام بما تناقله أئمة الشيعة عبر التاريخ من فتاوى كانت ولاتزال تعمق الكراهية بين شركاء العقيدة، وتقطع سبل التعايش بينهم. لقد روى أئمتهم إجماع علماء الشيعة على منع إعطاء الزكاة لمن لا يعتقد بالإمامة، لأن "الجاحد بها لا يكون مصدقا للرسول صلى الله عليه و آله و سلم في جميع ما جاء به فيكون كافرا فلا يستحق الزكاة، ولأن الزكاة معونة وإرفاق، فلا يعطى غير المؤمن لأنه يحاد الله ورسوله، والمعونة والإرفاق موادة فلا يجوز فعلها مع غير المؤمن..."[83].

5. هذه النزعة العنصرية التي تقسم الناس إلى أطهار قديسين وأرجاس منبوذين، لعلها أكثر النزعات التي عرفتها النظريات العنصرية تطرفا وشمولية. والمفارقة الكبرى هنا أن الإسلام الذي أرسى قواعد التسامح وأسس العلاقات البشرية على التعارف ورفع الإكراه في الدين، يتحول مع المعتقد الشيعي إلى أكثر العقائد عنصرية وإثارة للكراهية وزرعا للأحقاد بين أتباعه والمؤمنين به.

ومن المؤسف أن يبلغ هذا النزوع العنصري ذروته في هذا الوقت العصيب، مدعوما بوسائل الاتصال الحديثة، ليصبح لعن آحاد الأمة وجموعها وجبة يومية على شاشات الفضائيات، وجزء من التقاليد الشيعية المألوفة في مقدمات الكتب والمؤلفات، بل ومن المأثورات التي يتم التبرك بها في افتتاح الخطب والمقالات. وقد بلغ فساد الذوق البلاغي والحس الأخلاقي والتردي الإيماني حدا سوغ لعن الأمة الإسلامية منذ أن بزغت مع أب البشرية آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصار هذا اللعن شعيرة من الشعائر التي يتعبد بها تقربا إلى الله،، بحيث تقترن بالحمد لله والصلاة على الأئمة الأطهار، وأصبح من الشائع جدا أن يقال كما في هذه الافتتاحية: "الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين المعصومين، لاسيما الإمام الأول، أبو الحسن، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد الوصيين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من بدء الخليقة إلى قيام يوم الدين[84].

6. مع كل الوضوح الذي تبديه المواقف الشيعية، ودونما مواربة أو تقية، تصر قيادات دينية وسياسية من الصف الأول في الثورة الشيعية المعاصرة على تصدير مخزونها من هذا الرصيد العدائي لتقذف به خصومها وتنسل منه انسلال الشعرة من العجين. بعد استعراضه للخلاف السني الشيعي عبر المتواليات السياسية التي شهدها التاريخ الإسلامي منذ زمن النبوة، يؤكد الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي الطبيعة الطائفية لهذا الصراع الذي حدد أطرافه بين أهل السنة الذين يصفهم بالضيق والتعصب، وتقديس الرأي، والتحجر العقلي، وقتل حرية الفكر[85]، وبين الشيعة الذين يصفهم بأهل الرأي والتسامح واحترام الآخرين[86]! هذا الموقف قد لا يبدو جادا بالنظر إلى حجم العنصرية الدينية التي كانت ولا تزال تكرسها الأيديولوجيا الشيعية وأدبياتها التي أشرنا فيما سبق إلى عينات منها، وهو موقف لا يمكن تبريره خارج لعبة المناورة وتعمد خلط الأوراق وقلب الحقائق، فما من شك أن التماهي الذي تقيمه نظرية النص بين الإيمان والإمامة، واعتبار الإمامة فرضا دينيا لا يصح الإيمان بدونها، لم يترك لمعتنقي هذا المعتقد أي هامش "للرأي والتسامح واحترام الآخرين".

إن المحصلة النهائية التي يخرج بها كل قارئ للتراث الشيعي في هذا المجال تتلخص في مجملها في أن الرواية الشيعية تضع مشروع الرسالة الخاتمة برمته أمام حالة من الإفلاس قلما نجد لها نظيرا في تاريخ النبوات، حيث سقطت الجماعة المؤمنة ولما تتجاوز لحظة التشكل التاريخي، أمة يلعن بعضها بعضا، تتقاذفها الأهواء، وتتاجر بدينها في سوق المصالح والمكاسب السياسية الرخيصة. إن اختزال التاريخ الديني والسياسي للإسلام في هذه اللوحة القاتمة والصادمة التي يكذبها الوحي والتاريخ، إنما هي شهادة حية على مستوى الأداء الأخلاقي والعلمي لمؤلفيها، وهي تكشف إلى أي حد أصبح الهم السياسي يطغى على الهم المعرفي، حيث يستقيل العقل، وتغتصب ذاكرة التاريخ.

الهوامش:

1. الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان، أمير المؤمنين عليه السلام، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة. النسخة الإليكترونية، مركز الأبحاث العقائدية، ص27-28. ينظر الرابط:http://www.aqaed.com/book/54/indexs.htm
2. نفسه، ص366.
3. الملا صالح المازندراني، شرح أصول الكافي، ج11، ص313. النسخة الإليكترونية، موقع "مدرسة الفقاهة"، على الرابط: http://ar.lib.eshia.ir/
4. ينظر بهذا الخصوص ابن المطهر الحلي، الألفين في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، سلسلة الكتب العقائدية رقم: (172)، إعداد مركز الأبحاث العقائدية،ص24.
5. المرجع السابق، ص298.
6. الشيخ محمد بن علي بن بابويه القمي (الصدوق)، الاعتقادات، تحقيق: عصام عبد السيد، النسخة الإليكترونية، مركز الأبحاث العقائدية، ص102-106.
7. على سبيل المثال يقول السيد على الحسيني الصدر : "وإمامة آل محمّد الربّانية الإلهية من الأُصول الدعائم والأركان العظائم للدين الإسلامي الحنيف... وترك معرفتهم يوجب الردى وكفر الجاهلية الأولى". ينظر بهذا الخصوص: العقائد الحقّة، دراسة علمية جامعة في أصول الدين الإسلامي على ضوء الكتاب والسنّة والعقل. الناشر: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر ، 2005، النسخة الإليكترونية، المكتبة الشيعية الشاملة، ص278.
8. المرجع السابق، ص302.

9. عنوان لكتاب الشيخ محمد مهدي الحائري، منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف، الطبعة الخامسة، ج1، ص5. أفرده لبيان فضائل الموالين للتشيع ومثالب من فارقهم من الأغيار.
10. ([1]) محمد الموسوي، الفرقة الناجية، مناظرات ومراسلات في العقائد والتاريخ عن سبب افتراق المسلمين إلى73 فرقة، تعريب وتحقيق وتعليق فاضل الفراتي، الطبعة العربية الأولى، بدون بيانات الطبع، ج1، ص190. ينظر النسخة الضوئية بصيغة PDF على موقع مكتبة "نرجس" على هذا الرابط: http://www.narjes-library.com/2011/11/73.html
11. السيّد علي الحسيني الميلاني، تفضيل الائمّة (عليهم السلام)، على الأنبياء (عليهم السلام)، ، سلسلة الكتب العقائدية رقم: (86)، ص12، إعداد، مركز الأبحاث العقائدية.
12. نفسه، ص19.
13. المرجع السابق، ص25.
14. أحمد الرحماني الهمداني، الإمام علي (ع)، النسخة الإليكترونية، المكتبة الشيعية الشاملة، ص،363.
15. الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، تحقيق: عَلاء آل جَعفر، مؤسسة الإمام علي عليه السلام، قم المقدسة، 1415هـ - 1994 م، ص184.
16. شجرة طوبى، مرجع سابق، ج1، ص5.
17. العقائد الحقة، مرجع سابق، ص342.
18. أصل الشيعة وأصولها، مرجع سابق، ص184.
19. الاعتقادات، مرجع سابق، ص 102.
20. المرجع السابق، ص 102.
21. جواد جعفر الخليلي، السقيفة أم الفتن، الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت – لندن. بدون تاريخ، ص 74-75.
22. الحلي، منهاج الكرامة مركز الأبحاث العقائديةص185. ينظر الرابط: http://www.aqaed.com/book/449/m_krama-01.htm
23. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص76.
24. الفرقة الناجية، مرجع سابق، ج1، ص89.
25. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص76.
26. نفسه، ص50.
27. المرجع السابق، ص، 63.
28. الفرقة الناجية، مرجع سابق، ج1، ص190.
29. منهاج الكرامة، مرجع سابق، ص141.
30. هاشم الحسيني البحراني، البرهان في تفسير القرآن، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية مؤسسة البعثة، قم، النسخة الإليكترونية، المكتبة الشيعية الشاملة، الجزء الأول، ج3، ص62.
31. منهاج الكرامة، مرجع سابق، ص140.
32. العقائد الحقة، مرجع سابق، ص299.

33. رضي الدين علي بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قم، 1400 ص82.
34. نفسه، ص82.
35. نفسه، ص156.
36. منهاج الكرامة، مرجع سابق، ص49.
37. الطرائف، مرجع سابق، ص82.
38. الاعتقادات، مرجع سابق، ص103.
39. الطرائف، مرجع سابق، ص 96.
40. نفسه، ص98.
41. منهاج الكرامة، مرجع سابق، ص127.
42. الطرائف، مرجع سابق، ص143.
43. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص75.
44. العقائد الحقة، مرجع سابق، ص327.
45. محمد رضا المظفر، السقيفة، ص143، تحقيق وتقديم محمد المظفر، ط2، 1415هـ، مؤسسة أنصاريان، ص143.
46. حسن المصطفوي، الحقائق في تاريخ الإسلام والفتن والأحداث، ص129. ينظر النسخة الإليكترونية، موقع المكتبة الشيعية، على الرابط:

http://www.shiastudies.com/library/Subpage/Book.php?syslang=1amp;id=524amp;id_matn=9188&id=761

47. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص60.
48. الحقائق في تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص162.
49. الفرقة الناجية، ج1، ص48.
50. على سبيل المثال نقرأ في تفسير البرهان في معنى هذه الآية:"يعني بالشاكرين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، والمرتدين على أعقابهم: الذين ارتدوا عنه". انظر البرهان في تفسير القرآن، مرجع سابق، ج1، ص699.ونقرأ في كتاب "الغيبة" للشيخ ابن أبي زينب محمد بن إبراهيم النعماني، ص47: "وفي هذا القول من الله تبارك اسمه أدل دليل على أن قوما ينقلبون بعد مضى النبي(صلى الله عليه وآله) على أعقابهم، وهم المخالفون أمر الله تعالى وأمر رسوله عليه وآله السلام، المفتونون الذين قال فيهم: "فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم".
51. مقدمة تحقيق كتاب أصل الشيعة وأصولها، مرجع سابق، ص20-22.
52. السقيفة أم الفتن، ص105.
53. الفرقة الناجية ، مرجع سابق، ج1، ص89.

54. المرجع السابق، ص54.
55. السقيفة، مرجع سابق، ص99. وكذلك: الفرقة الناجية ، مرجع سابق، ص80.
56. نفسه، ص23.
57. عبد الفتاح عبد المقصود، السقيفة والخلافة، مكتبة غريب، 1978، ص31.
58. تواترت الروايات الشيعية على نقل هذه الأخبار، ينظر على سبيل المثال: الفرقة الناجية، ج1، ص61.
59. السقيفة، مرجع سابق، ص85.
60. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص، 97.
61. تقول الرواية على لسان عمر: "إنما أراد رسول الله أن يكتب عهد كتابة إلى علي فمنعته".السقيفة أم الفتن، ص، 97.
62. الفرقة الناجية، مرجع سابق، ج1، ص68.
63. الفرقة الناجية، مرجع سابق، ج1، ص63.
64. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق، ص58.
65. الفرقة الناجية، مرجع سابق، ج1، ص101.
66. السقيفة، مرجع سابق،ص98-108.
67. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق،ص60.
68. الحسن بن علي الطبري، أسرار الإمامة، مشهد المقدسة . قسم الفلسفة والكلام في مجمع البحوث الإسلامية 1416 هـ، النسخة الإليكترونية، المكتبة الشيعية الشاملة، ص7.
69. الفرقة الناجية، مرجع سابق،ج1، ص101.
70. نفسه، ص94، 100.
71. هذا بالحرف ما تقوله بعض الكتابات الشيعية، انظر على سبيل المثال: الحقائق في تاريخ الإسلام، مرجع سابق، ص153.
72. أسرار الإمامة، مرجع سابق، ص7.
73. السقيفة، مرجع سابق،ص120.
74. المرجع السابق،ص 122.
75. نفسه، ص 122.
76. الفرقة الناجية، مرجع سابق،ج1، ص97.
77. محمد كاظم الحسيني، الحجة البالغة، مكتبة العذراء، الكويت، ط1، سنة2004، ص171.
78. نفسه، ص171.
79. السقيفة أم الفتن، مرجع سابق،ص61، وكذلك ص103.
80. محمد خاتمي، الدين والفكر في فخ الاستبداد، تعريب ثريا علي وعلاء السباعي، مكتبة لشروق القاهرة، ط1، 2001، ص55.

81. العقائد الحقة، ص342.

82. هاشم البحراني الموسوي، غاية المرام، وحجة الخصام في تعيين الإمام، ج4، ص190، النسخة الإليكترونية، موقع: مركز الأبحاث العقائدية، على الرابط: http://www.aqaed.com/book/330/gh-mram4-15.html

83. ابن المطهر الحلي، منتهى المطلب، ج1، ص 522. نسخة إليكترونية، ينظر الكتاب على الرابط: http://ar.lib.eshia.ir/10167/1/522

84. مقدمة تحقيق منهاج الكرامة. ص12.

85. المرجع السابق، ص52-55

86. نفسه، ص 53.